موجز في التفسير

سورة الحاقّة

سليمان بيضون

* السورة التاسعة والستّون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «المُلك».
* سُمّيت بـ «الحاقّة» لورود هذا التعبير في الآيات الثلاث الأُول، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.
* آياتها اثنتان وخمسون، وهي مكّيّة؛ مَنْ قرأها حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً، كما في الحديث النبويّ الشريف.

في ما يلي موجز في تفسير السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (الميزان) للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ رحمه الله و(الأمثل) للمرجع الدينيّ الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ، و(نور الثّقلين) للشيخ عبد علي الحويزي رحمه الله.

الحاقّة، من «حَقّ الشيء» بمعنى ثبت وتقرّر تقرّراً واقعيّاً، والمراد منها في السورة «القيامة الكبرى» لثبوتها ثبوتاً لا مردّ له ولا ريب فيه، فهي الحياة الأخرويّة والساعة الآتية الثابتة المحقّقة المسلَّمة، الّتي ليس للإنكار والجهل والخلاف أثرٌ فيها.

محتوى السورة

تدور موضوعاتها حول محاور ثلاثة:

الأوّل: يرتبط بمسائل يوم القيامة وبيان خصوصيّاته، وقد وردت فيها ثلاثة أسماء من أسماء يوم القيامة، وهي: «الحاقّة»، و«القارعة»، و«الواقعة».

الثاني: تدور أبحاثه حول مصير الأقوام الكافرين، خصوصاً قوم عاد، وثمود، وفرعون، وتشتمل على إنذارات شديدة لجميع الكفّار ومُنكري يوم البعث والنشور.

الثالث: تتحدّث أبحاثه حول عظَمة القرآن الكريم، ومقام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ثواب تلاوتها

* عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ قَرَأَ سورَةَ الحاقَّةِ حاسَبَهُ اللهُ حِساباً يَسيراً».
* وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أَكْثِروا مِنْ قِراءَةِ الحاقَّةِ، فَإِنَّ قِراءَتَها في الفَرائِضِ وَالنَّوافِلِ مِنَ الإيمانِ بِاللهِ وَرَسولِهِ، وَلَمْ يُسْلَبْ قارِئُها دينَهُ حَتّى يَلْقَى اللهَ».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الآية:٦.

* النبيّ صلّى الله عليه وآله: «ما خَرَجَتْ ريحٌ قَطُّ إلّا بِمِكْيالٍ، إلّا زَمَنَ عادٍ، فَإِنَّها عَتَتْ عَلى خُزّانِها فَخَرَجَتْ في مِثْلِ خِرَقِ الإِبْرَةِ فَأَهْلَكَتْ قَوْمَ عادٍ».
* الإمام الباقر عليه السلام: «وَأَمّا الرّيحُ العَقيمُ، فَإِنَّها ريحُ عَذابٍ، لا تَلْقَحُ شَيْئاً مِنَ الأَرْحامِ، وَلا شَيْئاً مِنَ النَّباتِ، وَهِيَ ريحٌ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الأَرَضينَ السَّبْعِ، وَما خَرَجَتْ مِنْها ريحٌ إلّا عَلى قَوْمِ عادٍ حينَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ الخُزّانَ أَنْ يُخْرِجوا مِنْها عَلى مِقْدارِ سَعَةِ الخاتِمِ، فَعَتَتْ عَلى الخُزّانِ فَخَرَجَ مِنْها عَلى مِقْدارِ مَنْخِرِ الثَّوْرِ تَغَيُّظاً مِنْها عَلى قَوْمِ عادٍ؛ فَضَجَّ الخُزّانُ إلى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ ذَلِكَ فَقالوا: رَبَّنا إِنَّها قَدْ عَتَتْ عَنْ أَمْرِنا، إِنّا نَخافُ أَنْ يَهْلِكَ مَنْ لَمْ يَعْصِكَ مِنْ خَلْقِكَ وَعُمّارِ بِلادِكَ. فَبَعَثَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، إِلَيْها جَبْرَئيلَ، عَلَيْهِ السَّلامُ، فَاسْتَقْبَلَها بِجَناحِهِ فَرَدَّها إلى مَوْضِعِها وَقالَ لَها: اُخْرُجي عَلى ما أُمِرْتِ بِهِ. فَخَرَجَتْ عَلى ما أُمِرَتْ بِهِ، وَأَهْلَكَتْ قَوْمَ عادٍ وَكُلَّ مَنْ بِحَضْرَتِهِمْ».

قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ..﴾ الآية:٧.

الإمام الصادق عليه السلام: «الأَرْبِعاءُ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ يَوْمٍ وَآخِرُ يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ الّتي قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ..﴾».

قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ الآية:١٠.

الإمام الباقر عليه السلام: «الرّابِيَةُ الّتي أَرْبَتْ عَلى ما صَنَعُوا».

قوله تعالى: ﴿.. وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ الآية:١٢.

* النبيّ صلّى الله عليه وآله: «يا عَلِيُّ، إنَّ اللهَ، تَعالى، أَمَرَني أَنْ أُدْنِيَكَ وَلا أُقْصِيَكَ، وَأَنْ أُعَلِّمَكَ وَتَعِيَ، وَحَقٌّ عَلى اللهِ أَنْ تَعِيَ». قال الراوي: فنزل ﴿.. وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

* من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام: «أَلا وَإِنّي مَخْصوصٌ في القُرْآنِ بِأَسْماء، احْذَرُوا أَنْ تُغْلَبوا عَلَيْها فَتَضِلّوا في دينِكُمْ «..» وَأَنا الأُذُنُ الواعِيَةُ».

* عنه عليه السلام: «قالَ رَسولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿.. وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾: دَعَوْتُ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يَجْعَلَها أُذُنَكَ يا عَلِيُّ».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الآية:١٣.

النبيّ صلّى الله عليه وآله: «إنَّ النّاسَ يُصاحُ بِهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَلا يَبْقى مَيِّتٌ إلّا نُشِرَ، وَلا حَيٌّ إلّا ماتَ إلّا ما شاءَ اللهُ، ثُمّ يُصاحُ بِهِمْ صَيْحَةً أُخْرى فَيُنْشَرُ مَنْ مَاتَ، وَيَصُفّونَ جَميعاً، وَتَنْشَقُّ السَّماءُ، وَتُهَدُّ الأَرْضُ، وَتَخُرُّ الجِبالُ، وَتَزْفِرُ النّارُ بِمِثْلِ الجِبالِ شَرَراً ..».

قوله تعالى: ﴿.. وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ الآية:١٧.

* النبي صلّى الله عليه وآله: «إنَّهُمْ اليَوْمَ أَرْبَعَةٌ، فَإذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ، أَيَّدَهُمْ بِأَرْبَعَةٍ أُخْرى فَيَكونونَ ثَمانِيَةً».

* أمير المؤمنين عليه السلام في جواب من سأله عن الآية: «رَبُّنا، جَلَّ جَلالُهُ، يَحْمِلُ وَلا يُحْمَلُ "..." إنَّ المَلائِكَةَ تَحْمِلُ العَرْشَ، وَلَيْسَ العَرْشُ كَما تَظُنُّ كَهَيْئَةِ السَّريرِ، وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ مَحدودٌ مَخْلوقٌ مُدَبَّرٌ، وَرَبُّكَ، عَزَّ وَجَلَّ، مالِكُهُ، لا أَنَّهُ عَلَيْهِ كَكَوْنِ الشَّيْءِ عَلى الشَّيْءِ؛ وَأَمَرَ المَلائِكَةَ بِحَمْلِهِ، يَحْمِلونَ العَرْشَ بِما أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ».

* الإمام السّجّاد عليه السلام في صفة العرش: «لَهُ ثَمانِيَةُ أَرْكانٍ، عَلى كُلِّ رُكْنٍ مِنْها مِنَ المَلائِكَةِ ما لا يُحْصي عَدَدَهُمْ إلّا اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرونَ».

* الامام الصادق عليه السلام: «إنَّ حَمَلَةَ العَرْشِ لَمّا ذَهَبُوا يَنْهَضونَ بِالعَرْشِ لَمْ يَسْتَقِلّوهُ، فَأَلْهَمَهُمُ اللهُ (لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلّا بِاللهِ) فَنَهَضوا بِهِ».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ الآية:١٩.

الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ أُمَّةٍ يُحاسِبُها إمامُ زَمانِها، وَيَعْرِفُ الأَئِمَّةُ أَوْلِياءَهُمْ وَأَعْداءَهُمْ بِسيماهِمْ "..." فَيُعْطونَ أَوْلِياءَهُمْ كِتابَهُمْ بِيَمينِهِمْ، فيمرّون إلى الجَنَّةِ بِلا حِسابٍ، ويُعطون أَعْداءَهُمْ كِتابَهُمْ بِشِمالِهِمْ فيمرّون إلى النّارِ بِلا حِسابٍ، فَإذا نَظَرَ أَوْلِياؤُهُمْ في كِتابِهِمْ يَقولونَ لإِخْوانِهِمْ هاؤُمُ اقْرَؤا كِتابِيَهْ..».

قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ الآية:٢٠.

أمير المؤمنين عليه السلام: «الظَّنُّ ظَنّانِ: ظَنُّ شَكٍّ وَظَنُّ يَقينٍ، فَما كانَ مِنْ أَمْرِ مَعادٍ (أمرِ المَعاد) مِنَ الظَّنِّ فَهُوَ ظَنُّ يَقينٍ، وَما كانَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيا فَهُوَ ظَنُّ شَكٍّ».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ الآية:٣٢.

* الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ أَنَّ حَلْقَةً واحِدَةً مِنَ السِّلْسِلَةِ الّتي طولُها سَبْعُونَ ذِراعًا وُضِعَتْ عَلى الدُّنْيا لَذابَتِ الدُّنْيا مِنْ حَرِّها».

* وعنه عليه السلام: «.. وَكانَ مُعاوِيَةُ صاحِبَ السِّلْسِلَةِ الّتي قالَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وَكانَ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الأُمَّةِ».

الإمام الصادق عليه السلام:

«كُلُّ أُمَّةٍ يُحاسِبُها إمامُ زَمانِها، وَيَعْرِفُ الأَئِمَّةُ أَوْلِياءَهُمْ وَأَعْداءَهُمْ بِسيماهِمْ...»

الحاقّة، من «حَقّ الشيء» بمعنى ثبت وتأكّد، والمراد منها في السورة «القيامة الكبرى» لثبوتها ثبوتاً لا مردّ له ولا ريبَ فيه

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ..﴾

كلامٌ في برّ الأبوَين وعقوقهما

العلّامة المجلسي رحمه الله

في (الكافي) الشريف، وفي مستهلّ باب البرّ بالوالدين، أورد الشيخ أبو جعفر، محمّد بن يعقوب الكليني (ت: ٣٢٩ هـ) حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الإحسان إلى الوالدين، وقد استشهد الإمام صلوات الله عليه في سياقه بآياتٍ من القرآن الكريم.

هذا المقال، هو تفسير العلّامة المجلسي (ت: ١١١١ هـ) للآيات المستشهَد بها، وشرحه لفقرات الرواية - بعد أن صحّحها - وقد اخترناه من الجزء الثامن من كتابه (مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول) الذي صنّفه في شرح (الكافي) لثقة الإسلام الكليني.

عَنْ أَبِي وَلَّادٍ الْحَنَّاطِ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿..وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ..﴾ مَا هَذَا الإِحْسَانُ؟

فَقَالَ: **الإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ صُحْبَتَهُمَا، وأَنْ لَا تُكَلِّفَهُمَا أَنْ يَسْأَلَاكَ شَيْئاً مِمَّا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ وإِنْ كَانَا مُسْتَغْنِيَيْنِ، أَلَيْسَ يَقُولُ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ..﴾.** "..."

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: **وأَمَّا قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿..إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ..﴾، [أي] إِنْ أَضْجَرَاكَ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ، ولَا تَنْهَرْهُمَا إِنْ ضَرَبَاكَ.** "..."

﴿.. وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾، [أي] إِنْ ضَرَبَاكَ فَقُلْ لَهُمَا غَفَرَ اللهُ لَكُمَا، فَذَلِكَ مِنْكَ قَوْلٌ كَرِيمٌ. "..."

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ..﴾، [أي] لَا تَمْلأْ عَيْنَيْكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِمَا إِلَّا بِرَحْمَةٍ ورِقَّةٍ، ولَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فَوْقَ أَصْوَاتِهِمَا وَلَا يَدَكَ فَوْقَ أَيْدِيهِمَا، وَلَا تَقَدَّمْ قُدَّامَهُمَا».

ما تقدّم هو نصّ الرواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام

وما يأتي شرح العلامة المجلسي مختصراً:

* ﴿..وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ..﴾، أي وأحسنوا بهما إحساناً.

* «**أَنْ تُحْسِنَ صُحْبَتَهُمَا**»: أي بالملاطفة وحُسن البِشر وطلاقة الوجه والتواضع والترحّم وغيرها ممّا يوجب سرورهما، وفي إلحاق الأجداد والجدّات بهما نظر.

* «**وإِنْ كَانَا مُسْتَغْنِيَيْنِ**»: أي يمكنهما تحصيل ما احتاجا إليه بمالهما.

معنى البرّ

* قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ..﴾.

ظاهر الخبر أنّ المراد بالبرّ في الآية برّ الوالدين، ويمكن أن يكون المراد أعمّ منه ويكون إيرادها لشمولها بعمومها له.

وعلى التقديرين؛ فالاستشهاد إمّا لأصل البرّ، أو لأنّ إطلاق الآية شامل للإنفاق قبل السؤال وحال الغنى، لعدم التقييد فيها بالفقر والسؤال.

ويُمكن أن يقال: على تقدير تعميم البرّ - كما هو المشهور - أنّه لمّا استفيد من الآية أنّ الرجل لا يبلغ درجة الأبرار إلّا إذا أنفق جميع ما يحبّ، ولم يذكر الله المنفَق عليهم، وقد ثبت أنّ الوالدين ممّن تجب نفقته، فلا بدّ من إنفاق كلّ محبوب عليهم، سألوا أم لم يسألوا.

قال الطبرسي قدس سره في (مجمع البيان): «البِرّ أصله من السعة، ومنه البَرّ خلاف البحر، والفرق بين البرّ والخير، أنّ البرّ هو النفع الواصل إلى الغير ابتداء مع القصد إلى ذلك، والخير يكون خيراً وإن وقع عن سهو؛ وضدّ البرّ العقوق، وضدّ الخير الشرّ، أي لن تدركوا برّ الله تعالى بأهل الطاعة.

واختُلف في البرّ هنا، فقيل: هو الجنّة عن ابن عبّاس وغيره، وقيل: هو الثواب في الجنّة، وقيل هو الطاعة والتقوى، وقيل: معناه: لن تكونوا أبراراً، أي صالحين أتقياء».

في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّ من الإحسان إلى الأبوين «أَنْ لَا تُكَلِّفَهُمَا أَنْ يَسْأَلَاكَ شَيْئاً مِمَّا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ وإِنْ كَانَا مُسْتَغْنِيَيْنِ..»

في معنى الإنفاق

وفي (مجمع البيان) أيضاً في تفسير قوله تعالى:

* ﴿..حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ..﴾ آل عمران:٩٢.

قال الطبرسي: «أي حتى تنفقوا المال، وإنّما كنّي بهذا اللفظ عن المال، لأنّ جميع الناس يحبّون المال، وقيل: معناه ما تحبّون من نفائس أموالكم دون رُذّالها كقوله تعالى: ﴿..وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ..﴾ البقرة:٢٦٧.

وقيل: هو الزكاة الواجبة وما فرضه الله في الأموال.

وقيل: هو جميع ما ينفقه المرء في سبيل الخيرات».

وقال بعضهم: دلّهم، سبحانه، بهذه الآية على الفتوّة، فقال: لن تنالوا برّي بكم إلّا ببرّكم إخوانكم، والإنفاق عليهم من مالكم وجاهكم وما تحبّون، فإذا فعلتم ذلك نالكم برّي وعطفي.

* قوله تعالى: ﴿..وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران:٩٢، فيه وجهان:

أحدهما أنّ تقديره وما تنفقوا من شيء فإنّ الله يجازيكم به، قلّ أو كثر، لأنّه عليمٌ لا يخفى عليه شيء منه.

والآخر: أنّ تقديره: فإنّه يعلمه الله موجوداً على الحدّ الذي تفعلونه من حسن النيّة أو قُبحها.

فإن قيل: كيف قال سبحانه ذلك والفقير ينال الجنّة وإن لم يُنفق؟

قيل: الكلام خرج مخرج الحثّ على الإنفاق وهو مقيّد بالإمكان، وإن أُطلق على سبيل المبالغة في الترغيب، والأولى أن يكون المراد: لن تنالوا البرّ الكامل الواقع على أشرف الوجوه حتّى تنفقوا ممّا تحبون.

النهي عن التضجّر من الوالدين

* **الأفّ**: في الأصل وَسَخُ الأظفار، ثمّ استُعمل فيما يستقذر، ثمّ في الضجر، وقيل: معناه الاحتقار.

وقال الطبرسي قدّس سرّه: «روي عن الرضا، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليهم السلام، قال: (**لَوْ عَلِمَ اللهُ لَفْظَةً أَوْجَزَ فِي تَرْكِ عُقوقِ الوالِدَيْنِ مِنْ أُفٍّ لَأَتى بِهَا**).

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام، قال: (**أَدْنى العُقوق أُفّ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ شَيْئاً أَيْسَرَ مِنْهُ وَأَهْوَنَ مِنْهُ لَنَهى عَنْهُ**)، فالمعنى لا تُؤذِهما بقليل ولا كثير».

* قوله تعالى: ﴿..وَلَا تَنْهَرْهُمَا ..﴾ الإسراء:٢٣، أي لا تزجرهما بإغلاظ وصياح، وقيل: معناه لا تمتنع من شيء أراداه منك، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ الضحى:١٠.

القول الكريم وخفض الجناح

* قوله تعالى: ﴿.. وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ الإسراء:٢٣، أي خاطبهما بقول رفيق لطيف حسن جميل بعيد عن اللّغو والقبيح، يكون فيه كرامة لهما.

* قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ..﴾ الإسراء:٢٤، أي وبالغ في التواضع والخضوع لهما قولاً وفعلاً برّاً بهما وشفقةً لهما. والمراد بالذلّ، ههنا، اللِّين والتواضع دون الهوان، من خفض الطائر جناحه إذا ضمّ فرخه إليه، فكأنّه سبحانه قال: ضمّ أبويك إلى نفسك كما كانا

يفعلان بك وأنت صغير، وإذا وصفتِ العربُ إنساناً بالسهولة وترك الإباء قالوا: هو خافض الجناح.

وقال البيضاوي: «واخفض لهما، أي تذلّل لهما وتواضع فيهما، جعل للذلّ جناحاً وأمر بخفضها مبالغةً. وأراد جناحه كقوله: ﴿..وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الحجر:٨٨، وإضافته إلى الذلّ للبيان والمبالغة، كما أُضيف حاتم إلى الجود، والمعنى: واخفض لهما جناحك الذليل، وقُرئ الذِّلّ بالكسر، وهو الانقياد»، انتهى.

* **والضَّجر والتضجّر**: التبرّم.

* قوله: «**لَا تَمْلأُ عَيْنَيْكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِمَا إِلَّا بِرَحْمَةٍ ورِقَّةٍ، ولَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فَوْقَ أَصْوَاتِهِمَا**»: المراد بملء العينين حدّة النظر، والرقّة رقّة القلب، وعدم رفع الصوت نوع من الأدب كما قال تعالى: ﴿..لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ..﴾ الحجرات:٢.

* «**ولَا يَدَكَ فَوْقَ أَيْدِيهِمَا**»: الظاهر أنّ المراد أنّه عند التكلّم معهما لا ترفع يدك فوق أيديهما كما هو الشائع عند العرب؛ أنّه عند التكلّم يبسطون أيديهم ويحرّكونها، وقال الوالد، قدّس الله روحه: «المراد أنّه إذا ناولتهما شيئاً، فلا تجعل يدك فوق أيديهما وتضع شيئاً في يدهما، بل أبسط يدك حتى يأخذا منها، فإنّه أقرب إلى الأدب»، وقيل: المعنى لا تأخذ أيديهما إذا أرادا ضربك.

* «**ولَا تَقَدَّمْ قُدَّامَهُمَا**»: أي في المشي أو في المجالس أيضاً.

ثمّ اعلم أنّه لا ريب في رعاية تلك الأمور من الآداب الراجحة، لكنّ الكلام في أنّها هل هي واجبة أم مستحبّة، وعلى الأوّل هل تركها موجبٌ للعقوق أم لا، بحيث إذا قال لهما (**أُفّ**) خرج من العدالة واستحقّ العقاب؟

فالظاهر أنّه بمحض إيقاع هذه الأمور نادراً لا يسمّى عاقّاً ما لم يستمرّ زمانُ ترْك برّهما، ولم يكونا راضيين عنه لسوء أفعاله وقلّة احترامه لهما، بل لا يبعد القول بأنّ هذه الأمور إذا لم تصبح سبباً لحزنهما، ولم يكن الباعث عليها قلّة اعتنائه بشأنهما واستخفافه بهما، لم تكن حراماً، بل هي من الآداب المستحبّة، وإذا صارت سبب غيظهما واستمرّ على ذلك يكون عاقّاً، وإذا رجع قريباً وتداركهما بالإحسان وأرضاهما لم تكن في حدّ العقوق، ولا تُعدّ من الكبائر.

ويؤيّده ما رواه الصدوق في (الصحيح)، قال: «سأل عمر بن يزيد أبا عبد الله عليه السلام عن إمامٍ لا بأس به في جميع أموره، عارف، غير أنّه يُسمع أبويه الكلامَ الغليظ الذي يُغيظهما: أقرأُ خلفه؟ [أي أقرأ لنفسي ولا أئتم به؟] قال: «**لَا تَقْرَأْ خَلْفَهُ مَا لَمْ يَكُنْ عَاقّاً قَاطِعاً**»، والأحوط ترك الجميع.

وقد روى الصدوق بأسانيد عن الرضا عليه السلام، أنّه قال: «**أَدْنى العُقوقِ أُفّ، ولَو عَلِمَ اللهُ عزّ وجلّ شيئاً أهونَ من أُفٍّ لنَهى عنه**».

وروي في (الخصال) بسند معتبر عن الصادق عليه السلام، قال: «**قالَ أميرُ المؤمنينَ عَليه السّلام: مَن أحزنَ والدَيه فقَد عقَّهُما**».

ورأيت في بعض كُتب الحسين بن سعيد، عن إبراهيم بن أبي البلاد، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**لَوْ عَلِمَ اللهُ شَيْئاً أَدْنى مِنْ أُفٍّ لَنَهى عَنْهُ؛ وَهُوَ مِنَ العُقوقِ، وَهُوَ أَدْنى العُقوقِ، وَمِنَ العُقوقِ أَنْ يَنْظُرَ الرَّجُلُ إِلى أَبَوَيهِ ويُحِدَّ إِلَيْهِما النَّظَرَ**».

البِرّ هو النفع الواصل إلى الغير ابتداءً مع القصد إلى ذلك، والخير يكون خيراً وإنْ وقع عن سهو

خفْضُ الجناح من الذلّ هو المبالغة في الخضوع للوالدَين قولاً وفعلاً